الحصة الثالثة

اليَوْمي وعَالَمْ الحيَاة

عَالَمْ الحيَاة

إذا كان اليومي ينكشف بظواهره الاعتيادية التي تتكرَّر، لكن تحمل في طيَّاتها الجديد مع مطلع كل نهار، أليس الحديث عن عالم الحياة هو استحضار لنظام القيمة، لأنَّا لا نكتفي فحسب بالنظر إلى تمظهر الأشياء أمامنا، بل نحكم عليها كذلك بالصحة أو الخطأ منطقيًا، وبالمنفعة أو المضرَّة عمليًا، وبالخير أو الشَّر أخلاقيًا؟ لا شكَّ في أنَّ وجودنا في العالم لا يُنفي أسلوب حكمنا على أشياء هذا العالم، تلك التي تعتمل مباشرة في المعيش اليومي. غير أنَّ اكتشاف اليومي يقتضي نوعًا من التَّقويس أو «تعليق الحكم» للوقوف عند ظاهرة اليومي، وأشكال تمظهره ونمط انحجابه. عالم الحياة هو عالم التجربة كما يُحدِّده هُسِّيرل، تلك التَّجربة التي لا تنحصر فحسب في السُّلوك المعرفي كما يقول، بل هي تجربة العالم: «تَجْربَة المَوْقع في العَالَم» و«تَجْربَة المَوْقِف منَ العَالَم».

التَّجْرِبَة

تنبري التجربة من القُدرة على أداء مهام وممارسة أشياء في الحياة اليومية. علاقتنا بالمحيط اليومي المباشر هي في الغالب علاقة عملية أكثر منها حُكمية، أي أنَّا ننجز وظائف محدَّدة لغايات معيَّنة وليس الحكم على الأمور سوى من باب التَّبعية؛ تبعية الحكم للأداء. يتراءى ذلك في الحكم الجمالي مثلًا الذي لا يستقيم ما لم تكن هنالك تجربة فنية سابقة وقد تجسَّدت في أثر فني ملموس مثل اللوحة الزيتية أو القطعة الموسيقية. فلأنَّ هناك تجربة في الحياة تتجسَّد عمليًا في مختلف النشاطات والمهام، يأتي الحكم بعدها ليُقيِّم نظامها الشامل علاوة على عمليتها بالذات. عالم الحياة هو إذًا عالم «التَّجْرِبَة الحدْسِيَّة لكلّ يَوْم».

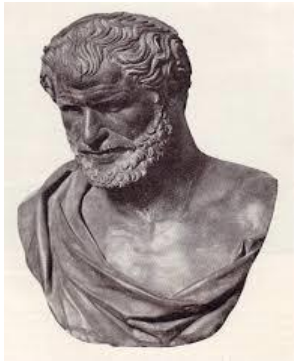

العَالَمْ الخَاصْ

ليست التَّجربة إذًا سوى الطريقة التي ننخرط بها عمليًا في العالم، ونُدرك حدسيًا الأشياء، ونؤدِّي مهام وفق مخططات قبلية تقتضي بلوغ أهداف بعدية، أي دور القصد في تأطير الفعل. ثم إنها تجربة «عينها» في وحدتها المتعالية، و«غيرها» في مختلف التعيُّنات الثقافية والتاريخية. بتعبير آخر، هناك عالم واحد مشترك يجعله ممكنًا الـ«نحن» التَّذاوتي، لكن هناك عوالم مختلفة هي تجليَّات لثقافات وأزمنة تضرب بجذورها في المعيش اليومي. ربما تجد عبارة هيرقليطس هنا مسوِّغها الفينومينولوجي: «بالنِّسْبَة لليَقِظِين ثَمَّة عَالم وَاحِد ومُشْتَرَك، لكن بالنِّسْبَة للنَّائمين، كُلُّ وَاحِدٍ يَنْصَرِفُ إلى عَالَمه الخَاص». الرهان الهيرقليطي هو أنَّ «النَّوْم» يُعبِّر عن خلود كل ذات إلى أناها في محض تجربتها الخاصَّة، عندما تكون «اليَقَظَة» هي اشتراك الذوات حول عالم يتيح التَّجربة التَّذاوتية. عالم الحياة هو عالم معطى سلفًا، وُجد قبلنا ويُؤطِّر وجودنا اليومي في مختلف تجليَّاته العملية والسلوكية.

العَالَمْ المُسْبَق

هذا الوجود السابق لعالِم هو في مقام الأرضية التي تنطلق منها تجربة الحياة، هو المبدأ الأساس الذي يُسلِّم به الفينومينولوجي بُغية تسويغ طبيعة هذه التَّجربة وأنماط تمظهرها في المعيش. هذا العالم هو «أرضية» كل تجربة: «إنَّ العَالم الذِي تَجْري فيه الحيَاة الذي يَسْتَقْبِلُ في ذَاته بِبَسَاطَة كُل التَّشْكِيلات العَمَلِيَّة (بما فِيهَا تَشْكِيلات العُلُوم المَوْضُوعِيَّة كوَقَائِع ثَقَافِيَّة) يَرْتَبِطُ طَبْعًا في التَغَيُّر الدَّائم لنسْبِيَّاته بالذَّاتية. لَكن مَهْمَا تَغَيَّر ومَهْمَا تمَّ تَصْحِيحُه، فإنَّه يحْتَفِظُ بنَمَطِيَّته التي لها قَوَانِينَ مَاهَوِيَّة والتي تَبْقَى كُل حَيَاة، وبالنَّتِيجَة كُل عِلْم، مُقَيَّدَة بهَا من حَيْثُ هُو "أرضيتها"» (هُسيرل).

العَالَمْ المُشْتَرَك

إذا كان العالم هو عالم المشترك الإنساني أو أساس التَّذاوت (العلاقة بين الذَّوات)، فإنَّ مجرى الحياة اليومية أو سيلانها الدائم يحصل في المحيط الواسع لهذا العالم وفي أفق الانتظار المستدام للمعنى الذي ينبري منه: «يَتَعَلَّق إذًا بالعَالم المشْتَرَك اليَوْمي الذِي تَجْري فِيه حَيَاتُنَا العَمَلِيَّة العَادِيَّة بأكْمَلِهَا. إنَّ كُلَّ مَا نَعْتَبِرُه مَوْجُودًا فعليًا في هَذَا العَالم يُفْهَمُ دَائمًا سَلَفًا عَلى أنَّهُ مَوْجُودٌ بالنسْبَة للجَمِيع، وَذَلِكَ بالذَّات عَلَى أسَاس التَّجْربَة المشْتَرَكَة» (هسيرل). الحياة اليومية، كما هي معطاة لنا في جريانها العادي وسيلانها الهيرقليطي، هي الأرضية المشتركة لكل الذوات المتعايشة. يمكن التفكير مثلًا في أنَّ «الأكل» هو مشترك بشري، لكن فن الأكل يختلف من تراث إلى آخر.

المُشْتَرَك اليَوْمي

على أساس هذا المشترك اليومي الذي يتيح معرفة اعتيادية بالآخرين، ينشأ نسيج العلاقات الذي يتعدَّى الذوات المتفرِّدة نحو الـ«نحن» الجامع المانع والذي يجعل ممكنًا التَّخاطب، بمعنى دور اللغة في جعل العلاقة التَّذاوتية ممكنة. الكل يرزح تحت عالم موضوعي سابق عليهم وهو لهم بمنزلة الدعامة الأساسية للتَّواصل والتَّخاطب. لا تُدرك الذوات من هذا العالم السابق سوى أطياف معرفة «موضوعة» في الإدراك البشري ومستقرَّة في ذواتهم، قبل أن تصبح معرفة «موضوعية» بمختلف الإجراءات العلمية والتقنية.

سُؤَال النَّحْن

عالم العيش هو «منطلق» كل التشكُّلات النَّظرية فيما هو يختفي عندما يرتفع صرح تلك التشكُّلات النَّظرية والأبنية العلمية. هو لها في مقام الأساس الذي ترتفع عليه البناية، بأن تُظهر البُنيان من جدران وأبواب ونوافذ، وتُخفي الأساس الذي شُيِّدت عليه. وليس عالم العيش، في نظر هُسّيرل، سوى «نحن» بالذَّات، هذا الـ«نحن» الذي هو ملتبس، بين الهويَّة المتعيّنة والثَّابتة، وفي الوقت نفسه الغيريَّة المتحوّلة والسَّائلة سيلان هيرقليطس. هذا الالتباس في عالم العيش هو الذي يُحدِّد بشكلٍ ما الفارق بين «التَّكتيكي» أو الطبيعي والعفوي للحياة، و«الاستراتيجي» الذي هو البناء العلمي لموضوعات العالم، هذه الثنائية بين التَّكتيكي والاستراتيجي التي سنتوقَّف عندها في الفصول القادمة.

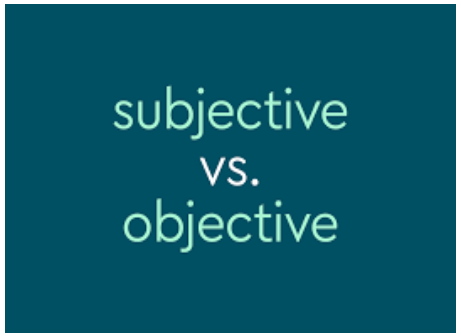

الذَّاتي والمَوْضُوعي

والمشكلة الرئيسة التي يطرحها هذا الالتباس هو الفاصل بين «الذاتي» و«الموضوعي» في صُلب الأزمة، من حيث أنَّ الـ«نحن» هو ذاتي بكل ما تحمله كلمة «الذَّات» من عُنصرٍ ينضح بالحياة، وهو تلقائي، ويُدرك أشياء، ويحدس وضعيَّات؛ وهو موضوعي عندما يتحوَّل إلى «موضوع» النَّظر العلمي للعالم، وينخرط هذا كُلُّه في منطلق التشكُّلات النَّظرية والعلمية؛ «وأنَّ اللغَة العَامَّة اليَوْميَّة سُرْعَانَ مَا تُصْبح عَاجزَة» وتُستعاض بلغة عالِمة وعلمية، أي لغة رمزية واصطناعية في الحديث عن حالة العالم. لأنَّ اللغة اليومية تقول التَّجربة المعيشة في عفويتها وفوضاها ويعمل العلم على ترجمتها موضوعيًا إلى لغة اصطناعية، فيُفقدها عفويتها ويُضبطها منهجيًا ومعجميًا. هكذا يتلاشى اليومي في خضم صخب الآلات والتشكُّلات العقلانية.